



إلا إذا كنت تعرفني. لا أريد مجاملة من أحد.

الشهيد يحذرنى: لا تصدق زغاريدهن. وصدق أبي حين ينظر في صورتى باكياً: كيف بدت أدوارنا يا بني، وسرت أمامي. أنا أولاً، وأنا أولاً!

الشهيد يحاصرني: لم أعير سوى موقعي وأثاني الفقير. وصغت غزلاً على مخدي، وهلالاً على إصبعي، كي أخفف من وجعي!

سيمتد هذا الحصار ليقنعنا باختيار عبودية لا تضر، ولكن بحرية كاملة!!

أن تقاوم يعني: التأكد من صحة القلب والخصيتين، ومن دائك المتواصل: داء الأمل.

وفي ما تبقى من الفجر أمشي إلى خارجي وفي ما تبقى من الليل أسمع وقع الخطى داخلي.

سلام على من يشاطرنى الانتباه إلى نشوة الضوء، ضوء الفراشة، في ليل هذا النفق.

سلام على من يقاسمني قديحي في كثافة ليل يفيض من المعدين: سلام على شحني.

[إلى قارئ:] لا تنق بالقصيدة. بنت الغياب، فلا هي حدس، ولا هي فكر، ولكنها حاسة الهاوية.

إذا مرض الحب عالجته بالرياضة والسخرية وبفضل المغني عن الأغنية

أصدقائي يعدون لي دائماً حفلة للوداع، وقيراً مريحاً يظلم السندبان وشاهدة من رخام الزمن فاسبقهم دائماً في الجنزة: من مات... من؟

الحصار يحولني من مغن إلى... وتز سادس في الكمان!

الشهيدة بنت الشهيدة بنت الشهيد وأخت الشهيد وأخت الشهيدة كنه أم الشهيد حفيذة جد شهيد وجارة عم الشهيد [الخ... الخ... الخ] ولا بنا يزعم العالم المتمدن، فالزمن البربري انتهى. والضحية مجهولة الاسم، عادية، والضحية. مثل الحقيقة. نسبية [و الخ... الخ]

هدوء، هدوء، فإن الجنود يريدون في هذه الساعة الاستماع إلى الأغنيات التي استمع الشهداء إليها، وظلت كراثة البن في دمهم، طازجة.

هدنة، هدنة لاختبار التعليم: هل تصلح الطائرات محاربت؟ قلنا لهم: هدنة، هدنة لامتحان التوايا. فقد يتسرب شيء من السلم للنفس. عندئذ نتبارى على حب أشيائنا بوسائل شعرية. فأجابوا: لا تعلمون بأن السلام مع النفس يفتح أبواب قلعتنا لمقام الحجاز أو النهود؟ فقلنا: وماذا؟ ... وبعد؟

الكتابة جرو صغير يعض العدم الكتابة تجرح من دون دم.

فناجيه قهوتنا. والعصافير والشجر الأخضر الأزرق الظل. والشمس تقفز من حائط نحو آخر مثل الغزالة. والماء في السحب اللانهاية الشكل في ما تبقى لنا من سماء. وأشياء أخرى مؤجلة الذكريات تدل على أن هذا الصباح قوي بهي، وأنا ضيوف على الأبدية.

رام الله - 11 يناير 2002

■ تنشر بالانتفاخ مع مجلة «الكومل» التي نشرها في العدد القادم.

ولا جرس الباب أيضاً يرن فكيف تيقنت من أنني لم أكن ههنا!

يجد الوقت للأغنية: في انتظارك، لا أستطيع انتظارك. لا أستطيع قراءة دوستويفسكي ولا الاستماع إلى أم كلثوم أو ماري كالكلاس وغيرهما. في انتظارك تمشي الغفارب في ساعة اليد نحو اليسار...

إلى زمن لا مكان له. في انتظارك لم أنتظر، انتظرت الأزل.

يقول لها: أي زهر تحبينه فتقول: القرنفل... أسود يقول: إلى أين تمضين بي، والقرنفل أسود؟ تقول: إلى بؤرة الضوء في داخلي وتقول: وأبعد... أبعد... أبعد...

سيمتد هذا الحصار إلى أن يحبس المحاصر، مثل المحاصر، أن الصجر صفة من صفات البشر.

لا أحيك، لا أكرهك.

قال معتقل للمحقق: قلبي ملي بما ليس بعينك. قلبي يفيض براحة المريمية. قلبي بريء مضيء مليء،

ولا وقت في القلب لامتحان. بلى، لا أحيك. من أنت حتى أحيك؟ هل أنت بعض أناي، وموعده شاي، وبحة ناي، وأغنية كي أحيك؟ لكنني أكره الاعتقال ولا أكرهك هكذا قال معتقل للمحقق: عاطفتي لا تحصك. عاطفتي هي ليلي الخوصوي...

ليلى التي يتحرك بين الوسائد حراً من الوزن والقافية!

جئسنا بعيدين عن مصائرنا كطيور توثت أعشاشها في ثغوب التماثيل، أو في المداخل، أو في الخيام التي نصبت في طريق الأمير إلى رحلة الصيد...

على طللي ينبت الظل الأخضر، والذئب يغطو على شعر شاتي ويحلّم مطلي، ومثل الملاك بأن الحياة هنا... لا هناك

الأساطير ترفض تعديل حبيكتها ربما مسها خلل طارئ

ربما جتحت سقن نحو ياسية غير ماهولة.

فأصيب الخيالي بالواقعي، ولكنها لا تغير حبيكتها.

لكنها وجدت واقعاً لا يلائمها عدلتها بجرافة.

فالحقيقة جارية النص، حسناء، بيضاء من غير سوء...

[إلى شبه مستشرق:] ليكن ما تظن. لنفرض الآن أنني غمي، غمي، غمي، ولا لعب الجولف.

لا أفهم التكنولوجيا،

ولا أستطيع قيادة طائرة!

لهذا أهدت حياتي لتصنع منها حياتك؟

لو كنت غيرك، لو كنت غيري،

لكنك صديقين يعترفان بحاجتنا للغياب.

أما لغني، كما لليهودي في «تاجر البندقية»

قلب، وخبز، وعينان تفروقان؟

في الحصار، يصير الزمان مكاناً تحجر في أيده

في الحصار، يصير المكان زمناً تخلف عن أمسه وغده

هذه الأرض وأطنة، عالية أو مقدسة، زانية

لا تبالي كثيراً بسحر الصفات فقد يصبح الفرج، فرج السماوات، جغرافياً!

الشهيد يحاصرني كلما عشت يوماً جديداً ويسألني: أين كنت؟ أعد للقواميس كل الكلام الذي كنت أهديتني،

وحقق عن الناشئين طنين الصدى الشهيد يعلمني: لا جمالي خارج حربي.

الشهيد يوضح لي: لم أفتش وراء المدى عن دناري الخلود، فإني أحب الحياة

على الأرض، بين الصنوبر والتين، لكنني ما استلعت إليها سبيلاً، ففتشت عنها بأخر ما أملك: الدم في جسد اللازورد.

الشهيد يحاصرني: لا تسر في الجنزة

وعشرون بيتاً. وخمسون زيتونة... بالإضافة للخلل البيئي الذي سيصيب القصيدة والمسرحية واللوحه الناقصة

في الطريق المساء بقنديل منفي أرى خيمة في مهب الجهات:

الجنوب عسي على الريح، والشرق غرب تصوف،

والغرب هدنة قتلى يسكون بقذ السلام، وأما الشمال، الشمال البعيد

فليس بجغرافيا أو جهة إنه مجمع الآلهة

قالت امرأة للسحابة: غطي حبيبي فإن قيايي مبللة بدمه

إذا لم تكن مطراً يا حبيبي فكن شجراً

مشعباً بالخضوبة، كن شجراً وإن لم تكن شجراً يا حبيبي

فكن حجراً

مشعباً بالرطوبة، كن حجراً وإن لم تكن حجراً يا حبيبي

فكن قمراً

في منام الحبيبة، كن قمراً [هكذا قالت امرأة لابنها في جنازته]

أيها الساهرون! ألم تتعبوا من مراقبة الضوء في ملحنا

ومن وهج الورد في جرحنا ألم تتعبوا أيها الساهرون؟

واقفون هنا. قاعدون هنا. دائمون هنا. خالدون هنا. ولنا هدف واحدٌ واحدٌ واحدٌ أن نكون.

ومن بعده نحن مختلفون على كل شيء: على صورة العلم الوطني (ستحسب صنعا لو اخترت يا شعبي الحي رمز الحمار البسيط).

ومختلفون على كلمات النشيد الجديد (ستحسب صنعا لو اخترت أغنية عن زواج الحمام).

ومختلفون على واجبات النساء (ستحسب صنعا لو اخترت سيده لرئاسة أجهزة الأمن).

مختلفون على النسبة المثوية، والعام والخاص، مختلفون على كل شيء. لنا هدف واحد: أن نكون ...

ومن بعده يجد الفرد متسعاً لاختيار الهدف.

قال لي في الطريق إلى سجنه: عندما أحررت أعرف أن مديح الوطن

كهجاء الوطن مهته مثل باقي المهن!

قليل من المطلق الأزرق اللانهائي يكفي لتخفيف وطأة هذا الزمان

وتنظيف حمأة هذا المكان

على الروح أن تنزل وتمشي على قدميها الحبريتيين

إلى جانبي، ويبدأ بيد، هكذا صاحبين قديمين يقسمان الرغبة القديم

وكأس النبيذ القديم لنقطع هذا الطريق معاً

ثم تذهب أيمناً في اتجاهين مختلفين: أنا ما وراء الطبيعة، أما هي

فتختار أن تجلس القرفصاء على صخرة عالية

[إلى شاعر:] كلما غاب عنك الغياب تورطت في عزلة الآلهة

فكن ذات، موضوعك التأثية و «موضوع» ذاتك. كن حاضراً في الغياب

يجد الوقت للسؤرية: هاتفي لا يرن

قصيدة جديدة لمحمود درويش

حالة حصار

(مقاطع)

هنا، عند متحدرات التلال، أمام الغروب وفوهة الوقت، قُرب بساتين مقطوعة الظل، نفعل ما يفعل السجناء، وما يفعل العاطلون عن العمل: نؤبئ الأمل.

بلاد على أهبة العجز. صرنا أقل نكاء، لأننا نحملق في ساعة النصر: لا ليل في ليلنا المتلائي بالدفعية. أعداؤنا يسهرون وأعداؤنا يشعلون لنا النور في حلقة الأقبية.

هنا، بعد أشعار «أوب» لم تنتظر أحداً...

سيمتد هذا الحصار إلى أن نعلم أعداءنا نماذج من شعرا الجاهلي.

السماء رصاصية في الضحى برتقالية في الليالي. وأما القلوب فظلت حيادية مثل ورد السياج.

هنا، لا أنا، هنا، يتذكر آدم صلصالة...

يقول على حافة الموت: لم يبق بي موطن للخسارة: حرأنا قرب حريتي، وغدي في يدي، سوف أدخل عملاً قليل حياتي، وأولد حرأ بلا أوبون. واختار لاسمي حرفاً من اللازورد...

في الحصار، تكون الحياة هي الوقت بين تذكر أولها. ونسيان آخرها.

هنا، عند مرتفعات الدخان، على درج البيت، لا وقت للوقت.

نفعل ما يفعل الصاعدون إلى الله: ننسى الأمل.

الألم هو أن لا تعلق سيده البيت حبلاً الغسيل صباحاً، وأن تتعني بنظافة هذا العلم.

لا صدق هوميري لشيء هنا. فالأساطير تطرق أبوابنا حين نحتاجها.

لا صدق هوميري لشيء. هنا جنرال يتقرب عن دولة نائمة

تحت انقراض طرودة القادمة

يقبس الجنود المسافة بين الوجود وبين العدم بمنظار دبابة...

نقبس المسافة ما بين أجسادنا والقذائف بالحاسة السادسة.

أبها الواقفون على العتبات ادخلوا، واشربوا معنا القهوة العربية

[قد تشعرون بأنكم بشر مثلنا]

أبها الواقفون على عتبات البيوت! أخرجوا من صباحاتنا،

نطمئن إلى أننا بشر مثلكم!

نجد الوقت للتسلي: نلعب البندق، أو نتصغح أخبارنا

في جرائد أمس الجريح، ونقرأ زاوية الخط: في عام

الفين والثين يتنسم الكاميرا لمواليد بزج الحصار.

كلما جاءني الأمل، قلت له: ليس موعداً اليوم، فلتتعد

وتعال غداً!

أفكر، من دون جدوى: بماذا يفكر من هو مثلي، هناك

على قمة التل، منذ ثلاثة آلاف عام، وفي هذه اللحظة العابرة؟

فتوجعني الخاطرة وتنتعش الذاكرة

خسائراً: من شهيدين حتى ثمانية كل يوم، وعشوة جرحي.

عندما تخفي الطائرات تطير الحمامات،

